فكرة الوطن خارج الجغرافيا عند الإمام محمد البشير الإبراهيميِّ
مقاربات في السِّيرة والمسيرة

The Idea of the Homeland beyond Geography According to Imam Muhammad al-Bashir Al-Ibrahimi
- Approaches to the Biography and the Career –

د. عبد الحفيظ شريف

جامعة آكلي محند أولحاج – البويرة (الجزائر)

تاريخ الإرسال: 2021/09/06 **تاريخ القبول: 2021/09/17**

ملخَّص:

تستهدف الورقة متابعة تشكُّل فكرة الوطن الجزائريِّ ونموِّها واستواءَها عند الإبراهيمي من خلال مدخل يؤسِّس لطبيعة الفكرة وخلفياتها، بالمقاربة بين حداثة مصطلح المواطنة وولاء التَّفكير الإبراهيمي لجذور مفهومية تراثية، ثمَّ مرافقة المصطلح والمفهوم لمسيرته بعتباتها الكبرى وتحوُّلاتها الفارقة، والوقوف على الخصائص البارزة في تقاطعاتٍ ثلاثة: أولاها بالمهجر الشَّاميِّ أيَّام الطَّلب والاستعداد، وما أحاط نشوءَ فكرةِ الوطن من ملابسات تاريخيَّةٍ ومرافقات بشرية، وثانيها بالبلاد الفرنسيَّة بين الجاليات الجزائرية والعربية والإسلامية وما تخلَّلها من نشاطٍ طبَع مرحلة التَّوعية بالفكرة وإسنادها، وثالثها أثناء الرِّحلة الإبراهيميَّة الشَّهيرة إلى الدِّيار العربيَّة والإسلاميَّة، وما رافقها من مشروعات الإمداد ودعم الجهاد.

الكلمات المفتاحية: الوطن، المواطنة، الجغرافيا.

Abstract:

The paper aims to trace the formation of homeland as an idea , its growth and its maturity according to Al-Ibrahimi, through an introduction that establishes the nature of the idea and its backgrounds, by approaching the modernity of the term citizenship, and the loyalty of the Al-Ibrahimi thinking to the conceptual roots of heritage, then accompanying the term and the concept in its path with its major thresholds and its differentiating transformations, and standing on the salient characteristics in three intersections: the first of

المنارة للاستشارات

which in the Levantine exile in the days of emergence. From historical circumstances and human escorts, the second is in French countries between the Algerian, Arab and Islamic communities, and the activity interspersed that printed the awareness phase of the idea and its attribution, and the third during the famous Al-Ibrahimi journey to the Arab and Islamic world, and the supply projects that accompanied it and the support of Jihad.

***Keywords*:** Homeland, Citizenship, Geography.

مدخل:

يحتكم مفهوم الوطن والمواطنة إلى جدل عريضٍ أفرزه انفتاحُ المصطلحَيْن على معانٍ واسعةً يغلب عليها الشُّمول والغموض، وقابليتُها لتحمُّل دلالاتٍ ذات مرجعياتٍ فكرية وثقافيَّة وتاريخيةٍ وسياسيةٍ متداخلةٍ، ومع أنَّ الفكر الغربي الحديث قد حاول ضبط المصطلحَيْنِ في إطار الخيارات الكبرى التي أطَّرت الحياة الغربيةَ الحديثة بعد معاهدة وستفاليا 1648م، وجعْلَ هذه المصطلحَيْنِ مستجيبَيْن لمستجدَّات العصر الحديث التي ميَّزها نشوءُ الدَّولة القُطْرِية جغرافيًّا والمدنيَّة عقيدةً. ومع كلِّ هذا لم يستطع هذان المصطلحان التَّخلُّص من الحمولة التَّاريخيَّة اليونانيَّة والرُّومانيَّة التي شُحِن بهما هذان المصطلحان، كما لم يكن بالإمكان ضبطُ مفهومٍ قارٍّ وموحَّدٍ لكلٍّ منهما باعتبار اختلاف زوايا التَّناوُل وتعدُّد اعتبارات الحكم، كأسبقية الفرد على المجتمع أو العكس، وأثر العامل الجغرافيِّ حضورًا وغيابًا، ثمَّ اعتبارُ معيار تحديد الحقوق والواجبات، ومِسْطَرة حجم الالتزام بهما ومداه، وغير ذلك ممَّا جعل من الضَّبط النِّهائيِّ لمفهوم المصطلحَيْن متعذِّرا.

ومع هذا التَّردُّد الذي عرفه المصطلحان في الدَّلالة والإجراء؛ فقد تراوح المصطلح وتعريفه متقلِّبا بين معطيات الحياة العامَّة الحديثة وتقلُّباتها، وتجاذباتهما آراء الدَّارسين والفلاسفة انطلاقا من التَّوجُّهات الكبرى التي تؤطِّر وجهة البحث والتَّأصيل لديهم.

1– المواطنة؛ ريادة المصطلح وتردُّد المفهوم:

تُعرَّف المواطنة في أحدِ تعريفاتها الكثيرة بأنَّها: "تمتُّع الشَّخص بالحقوق والواجبات وممارستها في بقعة جغرافيَّة معيَّنة، لها حدودٌ محدَّدة، تُعرَف في الوقت الرَّاهن بالدَّولة القوميَّة الحديثة التي تستند إلى حكم القانون"[1] – والتَّعريف كغيره من التَّعريفات– لا يخلو من

المنارة للاستشارات

خلافٍ واضحٍ لم يُفصَل فيه بعد، فإذا كانت المواطنة ممارسةً لحقوقٍ وواجباتٍ، فهل يمكن نزع هذه الصِّفة عمَّن تأخَّر عن ذلك؟ وهل يُسلَبُ صفةَ المواطن؟ وهل إيراد العامل الجغرافيِّ يعدُّ قيدا يتمُّ بموجبه إقصاءُ الجاليات والمهاجرين؟ أم هم استثناءٌ يُشرَّعُ لهم بمقتضاه ما يؤطِّر وضعهم ضمن ثلاثية: وطن مواطنة مواطن؟ وهل المواطنة ممارسةٌ نابعة من ضمائر المواطنين وقناعاتهم، أم هي التزام قانونيٌّ تطبعه النَّفعية؟ والأسئلة حول القضية كثيرة.

لا شك أنَّ المسألة على درجةٍ من التَّردُّد بقدرٍ لم يُخفِ فيه أرسطو نفسُه صعوبةَ البتِّ في مثل هذه المفاهيم، والقطع في دلالاتها، وضبط إجراءاتها، فبعد استعراضه لكثير من الجدل الذي يثيره السَّعي إلى تثبيت أركان المفاهيم وضبط المصطلحات الدَّالَّة عليها؛ يبدي ذلك التَّردُّد الذي انعكس على تحديده لحقيقة المواطن بوصفه العنصر الذي يُجلي حقيقةَ المواطنة ومعنى الوطن، فيقول بعد استعراض جملة من الإشكالات: "نخلص من ذلك إلى أنَّ "المواطن" يختلف بالضَّرورة وفقا لكلِّ دستور، ويفسِّر ذلك وجوده [المواطن] الذي أشرنا إليه في النِّظام الدِّيموقراطيِّ، لا يحول ذلك دون إمكانية وجوده في النُّظُم الأخرى غير أنَّ هذا ليس بالضَّرورة"[2] وأمام هذا الاضطراب في تحديد المفاهيم واختلالات الممارسة التي شهدها الفكر الغربيُّ الحديث خاصَّةً بعد الثَّورتَيْن الفرنسيَّة والأمريكيَّة؛ اهتدى المجتمع الغربيُّ إلى آلياتٍ عامَّةٍ تضمن الحدَّ الأدنى من هدوء العلاقة بين الفرد والمجتمع، وفاءً لاجتهاد كلِّ دولةٍ ضمن الخطِّ الفكريِّ العام الذي ترجع خلفياتُه الأولى إلى الفكرين السِّياسيَّيْن اليونانيِّ والرُّومانيِّ.

2– الوطن والمواطنة في الفكر العربيِّ الحديث:

تنازَعَ فكرةَ الوطن والمواطنة في الوطن العربيِّ والشَّرق على العموم منزعان: أحدهما ما كان عليه مفهوم الوطن كمصطلح ودلالة، ومفهوم المواطنة كممارسة طيلة العهود التي عرفتها الحياة العربية، ومشهد الدَّولة الفتيَّة بمجيء الإسلام. ولئن كان للمفهومَيْن في الدَّلالة والممارسة ما يَميزُهما في الحياة الإسلامية بخصوصياتها الكبرى؛ فإنَّ وفادة المصطلَحَيْن بعد الصَّدمة الحضارية الكبرى بين الغرب والشَّرق في العصر الحديث، أفرز اضطرابا مزدوجا أحال على انقسامٍ فكريٍّ ثنائيِّ الحدِّ على الأقلِّ، أوَّلُهما تيَّارٌ محافظٌ مدينٌ لطبيعة الشَّرق

المنارة للاستشارات

وروحه، والوفاء لمصادر فكره وثقافته، وقد تتنازل بعضُ مكوِّناته إلى القَبول ببعض المراجعات تأثُّرا بالوافد الغربيِّ الجديد، وهو تيَّارٌ يستند إلى مساحات تمثيليَّةٍ شعبيَّةٍ واسعة، ولكنَّها محدودة الوعي، قصيرةُ النَّفَس فكريًّا وحضاريًّا، وتيَّارٌ يَسِمُ نفسه بالتَّنوير، ويدعو إلى إحلال النَّموذج الفكريِّ الغربيِّ متعلِّلاً بثمرات التَّنوير، ومُغفِلا أو متجاوزا حجم نضاله ونتائجه وناسيا أو متناسيا الاختلاف الجوهريِّ بين البيئتَيْن الكبيرتَيْن (الشَّرق والغرب). ولعلَّ هذا وحده كافٍ لتصوير طبيعة المشهد، وتوصيف المسافة بين المنزَعَيْن في الحياة العربية الإسلامية.

كان هذا المدخل ضروريًّا للعبور إلى موضوع المداخلة التي استهدفت متابعة موقع الشَّيخ الإبراهيميِّ بين النَّزعتَيْن، ومدى حضورها في سيرته، والوقوف على عتباتها في محطَّات معيَّنة من مسيرته.

إنَّه ليس من المنهج العلميِّ ولا الالتزام الأخلاقيِّ أنْ نحاكم الرَّجل بما خطَّته يده في مواقفه إزاء الوطن والمواطنة –ولنضف مصطلحا مشتقًّا آخر هو الوطنية– وهي مصطلحاتٌ حديثةٌ صياغةً ومضمونًا، والرَّجل معروف بالانتماء لبيئةٍ شرقيَّةٍ، ومن أشدِّ الأوفياء لها. ومن هنا فقد رَضِيَت المداخلةُ لنفسها ضرورةَ اتِّباع مسلكٍ تتابعُ فيه معاني هذه المصطلحات وحضورها في مسيرة الإبراهيميِّ بمقابلاتها التُّراثيَّة العربيَّة والإسلاميَّة، ومعرفة ما إذا كانت نابعةً من مفاهيم الشَّرق ودلالاته وممارساته؟ أم أصابها من معاني المصطلحات وحقائقها في الغرب، وقد كان الرَّجل ضمن خطوط التَّماس المتقدِّمة بين الفكرَيْن والحضارتَيْن؟

3– الوطن والمواطنة في التُّراث العربيِّ:

لهذا الجذر في المعجم العربيِّ القديم دلالة المكثِ والاستقرار، ففي أوَّل معجم عربيٍّ قال الخليل:" كلُّ مَبْرَكٍ يكون إلفا للإبل فهو عَطَنٌ، بمنزلة الوَطَنِ للنَّاس"[3] وقال: "الوَطَنُ: مَوْطِنُ الإنسان ومَحَلُّهُ. وأوطانُ الأغنام: مَرابِضُها التي تأوي إليها، ويُقال: أَوْطَنَ فلانٌ أرضَ كذا، أي: اتَّخذها مَحَلاً ومَسْكَناً يُقيمُ بها"[4] وهو المعنى التي احتفظت به المعاجم حتَّى العصر الحديث، ويتناوله المعجم الوسيط بالمعنى نفسه مع إضافة نوعيَّةٍ، فجاء فيه: "الوطن: مَكَانُ إِقَامَة الإِنسَانِ ومقرُّه، وَإِلَيْهِ انتماؤُه، وُلد بِهِ أَو لم يُولد"[5] والإضافة الأخيرةُ في التَّعريف مستوحاة من المفاهيم الجديدة المتشكِّلة بفعل تأثيرات الحياة المعاصرة، ويبرِّرُها

المنارة للاستشارات

مصطلح (الانتماء) فبعد أنْ كانت الدَّلالة الحسِّية (الإقامة –الاستقرار...) ضابطا لتحديد المصطلح، أُردِف بدلالة معنويَّة لم تقتصر على الحضور الجسديِّ، بل انفتحت على الجانب الشُّعوريِّ والنَّفسيِّ، ولعلَّ ذلك المصطلح المجاور (المواطنة) التي يُعرِّفها معجمُ اللُّغة العربيَّة المعاصرة بشيءٍ من التَّفصيل، وباعتبارات مختلفة:

أ– باعتبار الانتماء الإنسانيِّ: "نزعةٌ ترمي إلى اعتبار الإنسانيّةِ أسرةً واحدةً وطنُها العالَمُ وأعضاؤها أفراد البشر جميعًا"(6).

ب– باعتبار التَّشكيل البشريِّ في حدود إقليميَّة معلومة: "عدمُ التَّمييز بين أبناء الوطن الواحد وسكَّانه الذين ينتمون إليه على أساس الدِّين أو اللُّغة أو العنصر أو الجنس"(7).

ج– باعتبار الحقوق والواجبات المترتِّبة على أفراد المجتمع: "كونُ المرء مواطنًا من مواطني دولةٍ وله فيها حقوقٌ وامتيازاتٌ تكفُلُها له الدَّولةُ، وبالمقابل عليه الالتزام بالواجبات التي تفرضها عليه"(8).

ومن التَّعريفات الاصطلاحية لمصطلح (الوطن) في التُّراث العربيِّ ما جاء في كلِّيات الكفويِّ: "الوطن: هُوَ منزلُ الإِقَامَة، والوطن الأَصْلِيُّ مولد الإِنسَان، أَو البَلدة التِي تأهَّل فِيهَا. ووطن الإِقَامَة: هُوَ البَلدةُ أَو القرْيَة التِي لَيْسَ للمُسَافِر فِيهَا أهلٌ، وَنوى أَنْ يُقيمَ فِيهِ خَمْسَة عشر يَوْمًا فصَاعِدًا. ووطنُ السُّكنَى: هُوَ المكَان الذِي يَنوِي المسَافِرُ أَن يُقيم فِيهِ أقلَّ من خَمْسَة عشر يَوْمًا"(9) والتَّعريف في مضمونه وفلسفته وصياغته وفيٌّ لمنازع تشريعيَّة فقهيَّةٍ واضحة، بحكم طبيعة التَّأليف السَّائد يومذاك، والذي يعكس بشكلٍ واضحٍ أيضا طبيعة المجتمع والوجهة الفكريَّة السَّائدة فيه، ولكنَّه لم يبرح الرُّؤية الحسِّية للوطن في اعتباره مكانًا.

4– موقع "المواطن" من المنظومة المصطلحيَّة التُّراثيَّة:

في خضمِّ التَّداوُل المعجميِّ العربيِّ القديم والحديث، وما شهده من تطوُّر فكريٍّ ومفهوميٍّ نِسبيٍّ، فإنَّ مصطلح (المواطن) لم يحضَ بمدخلٍ معجميٍّ في المعجم العربيِّ، ولعلَّ ذلك يرجعُ إلى أنَّ المقابل المفهوميَّ للمصطلح عولج تحت مداخلَ أخرى كالرَّعية، أو الفرد أو المحكوم، أو غيرها من المصطلحات التي كانت أقربَ إلى التَّداوُل الشَّرعيِّ مقابل: الرَّاعي/ الحاكم الذي يقوم على الشُّؤون العامَّة.

المنارة للاستشارات

وبفعل الوصف العامِّ للمنظومة الفكريَّة والاجتماعيَّة والسِّياسيَّة التُّراثيَّة وتأثيراتها على صياغة المصطلح والمفهوم؛ فإنَّ هناك بَوْنا شائعا بين دلالات المصطلحات بين الغرب (الموطن الأصلي للنَّشأة) وبين الشَّرق عموما، وبين العالَمَيْن العربيِّ والإسلاميِّ منه تعيينا ومن هنا؛ فإنَّ موقع الرُّؤية الإبراهيميَّة لتوليفة المصطلحات التي تداولتها كتاباته: (الوطن – المواطنة – الوطنية – المواطن) سيتشكَّل من خلال متابعةِ سياقات الاستخدام، واكتشاف مبرِّرات التَّوظيف، واستحضار مواقف الممارسة، ولعلَّ ذلك أنسب المسالك في بناءِ تصوُّرٍ أقربَ إلى الصِّحَّة، وأبعدَ عن التَّزيُّد أو التَّجنِّي.

5– الرُّؤية الإبراهيمية لمفهوم الوطن والمواطنة: تُحيل المتابعةُ الشّمولية لمسيرة الإبراهيميِّ العلميَّة والعملية على مواقف كبرى أَجْلَت نظرته إلى الوطن، ورسمت فهمه وممارسته للمواطنة، وليس أظهر لهذه المواقف وتلك الرُّؤية من استحضار جملة من مقولاته، واستعراض أبرز العتبات التي شكَّلت مفاهيم الوطن والمواطنة والوطنية في فكر الإبراهيميِّ.

5–1– الوطن عند الإبراهيمي باعتباره مفهوما تراثيا:

من خلال مسحةٍ سريعة لسيرة الإبراهيميِّ ومتضمَّنِ ما نطق به في سرده لكثير من تفصيلاتها؛ نقف على أنَّ العوامل التي أسهمت في تشكيل فكرة الوطن ومتعلَّقاتها لديه:

- التَّكوين الدِّينيُّ الذي يجعل من الوفاء للأوطان جزءًا من الوفاء للأديان، ويُرتِّب حُبَّ الأوطان من لوازم الإيمان.
- التَّكوين العلميُّ والمعرفيُّ الذي أُشرب به الإبراهيميُّ الفتى قِيَم حبِّ مراتع الصِّبا، ومنازل الإقامة وهو الذي تناقلته مئات العبارات التي حَفِظَها وهو دون البلوغ.
- التَّكوين العمليُّ والأثر الواقعيُّ الذي تركته عليه رحلاته نحو الحجاز وهو شابٌّ، ثمَّ إلى بلاد الشَّام، وما كان لذلك من أثر على كثير من محطَّات حياته بعد ذلك.

لئن لم يتوارد الشُّعراء القدامى الوطن بهذا اللَّفظ في قصائدهم، فإنَّ حقيقته من أكثر ما تناولوه، بل ما أكثر ما تصدَّر عيون القصائد وإنْ بغير لفظه، فلَكَمْ تغنَّى الشَّاعر العربيُّ القديمُ بذلك المفهوم البسيط للوطن، يحنُّ إلى المرابع، ويُمعن في وصف المنازل، ولا يتحرَّج من الإفصاح عن لواعج نفسه بذكراه إلى آثار الخيام ومواقد القوم، تعيده إلى سابقِ عهدٍ

المنارة للاستشارات

وسالفِ زمنٍ، فصِيغَت عيونُ الشِّعر القديم بذكر الدِّمن والدِّيار، وأجادت القرائحُ تصديرَ القصائد بذلك، وهي المعاني التي تفنَّن الشّاعر العربيُّ في تقليبها على الأوزان، وترديد صورها فيما توالى من تصاريف الأزمان، فكما أنشد امرؤ القيس:

لِمَنْ طَلَلٌ أبْصَرتُهُ فَشَجَانِي *** كَخَطّ زَبُورٍ في عَسِيبِ يَمَانِ

دِيَارٌ لِهِنْدٍ وَالـرَّبَابِ وَفَرْتَنِي *** لَيَالِيَنَا بِالنّـعْفِ مِنْ بَدَلانِ

ردَّد ابن الرُّومي: ولـي وطـنٌ آليـتُ ألا أبيعَـهُ *** وألا أرى غيري له الدَّهرَ مالكا

عهدتُ به شرخَ الشَّبابِ ونعمةً *** كنعمةِ قومٍ أصبحُوا في ظلالِكا

وحبَّبَ أوطـانَ الرجـالِ إليهمُ *** مآربُ قضاها الشَّبابُ هنالكا

إذا ذَكَـروا أوطـانهم ذكَّرتُهُـمُ *** عهودَ الصِّبا فيها فَحنُّوا لذلك

وأردَفَ المُتنبّي: بِمَ التَعَلُّلُ لا أَهـلٌ وَلا وَطَـنٌ *** وَلا نَديمٌ وَلا كَـأسٌ وَلا سَكَنُ

أُريـدُ مِن زَمَـني ذا أَن يُبَلِّغَني *** ما لَيسَ يَبلُغُهُ مِن نَفسِهِ الزَّمَنُ

وجاء في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾ [الممتحنة: 8] ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيحَةُ فَأَصبَحُواْ فِي دِيَرِهِم جَٰثِمِينَ﴾[هود: 67] ولم تكن مخاطبة الإبراهيميِّ لوطنه بأبعد عمَّا تغنَّى به الأوَّلون، فهي المشاعر نفسُها، وهو الحنين نفسُه، صدقٌ غامرٌ، وشوقٌ ظاهرٌ، ومن كتابات الإبراهيميِّ التي تبقيه على صلةٍ بهذا التَّوجُّه العربيِّ نصُّه الشَّهير "**تحية غائبٍ كالآيب**" المنشور في ماي 1953م بمجلَّة البصائر، وهو بحقٍّ من عيون الأدب العربيِّ في حبِّ الأوطان، فقد جمع إلى قوَّة لغته وجزالة لفظه واستواء عبارته؛ شاعريةً عاليةً، وقد أشربت معاني الصِّدق، ومشاعر الحبِّ، وآيات الوفاء، وها هو الإبراهيميُّ يحاور وطنه الذي خرج منه كرها، كمن يحاور بشرًا يعي عنه ما يقول "وكأنّ فيك قطعةٌ من كلِّ رُوح، يجد فيك كلُّ غريبٍ أنسًا، وكلُّ حبيبٍ سلوى، وكلُّ مكروب تنفيسًا، خلالٌ كلُّها جلال، وما ذلك الرُّوحُ الذي يجده الواله في أنفاسك، إلاَّ أنفاس المحبّين تمتزج بأنفاسك، فيجدونها بردًا على الأكباد، وبشاشةً في الأسارير، ورضًى في السَّرائر"[(10)] تلك هي المعاني التي لَقِنها الإبراهيميُّ في أشعار القوم، وأُشرِبها كما أُشرِب كثيرا من معاني المروءة والوفاء التي نشأ

المنارة للاستشارات

عليها العربيُّ، ونَشَّأ عليها مَن يليه مِنْ بَنيه، فقد اجتمع على الإبراهيميِّ من العوامل التي تبوَّأ بها الوطنُ عنده مكانةً أفضت بها عبارتُه، ونطقت بها مواقفُه، وهو بهذا النَّوع من العبارات، وجنس هذه الصُّور لم يخرج عن معاملته لفكرة الوطن بمفهومها التُّراثيِّ، والتي تناولت معانيها معاجمُ الألفاظ ومعاجم المعاني على السَّواء، ولئن بدا الإبراهيميُّ في هذا النَّص يَغرف من معين الأوَّلين، ويَركَنُ إلى ما فرضته عليه مقتضيات الشَّرع والدِّين، فإنَّ رؤيتَه لفكرة الوطن ومفاهيم الوطنيَّة والمواطنة والمواطن ستجليها مواقف أخرى من مسيرته النِّضالية الحافلة.

5-2- تشكُّل فكرة الوطن عند الإبراهيميِّ خارج الجغرافيا الجزائريَّة؛ المشاهد والآثار:

عَرَف الحضورُ الإبراهيميُّ خارج الدِّيار الجزائريَّة محطَّاتٍ نوعيةً فارقةً في طبيعتها وآثارها فقد خرج الإبراهيميُّ مُيمِّما تلقاء المشرق سنة 1911م، فمرَّ بمصر التي مكث بها نحو ثلاثةِ (03) أشهر لقي فيها أحمد شوقي، وحافظ إبراهيم، والشَّيخ محمَّد رشيد رضا، وشيوخا من الأزهر، ثمَّ نزل الحجاز فمكث بها نحو سبع (07) سنين متعلِّما ومعلِّما، ثمَّ كانت إقامةُ الإبراهيميِّ في بلاد الشَّام لنحو أربع (04) سنوات معرِّجا إليها من المدينة، فكانت محصِّلةُ رحلته المشرقيَّة الأولى نحو عشر (10) سنين كانَ لها الأثر الواضح على تكوينه المعرفيِّ عموما، وصَقْل خِبْراته لما سيحمله القادم من الأحداث والمناسبات.

وباستعراض أبرزِ ما تخلَّل هذه المحطَّات، نُحاول اكتشاف تشكُّل فكرة الوطن والمواطنة خارج الجغرافيا الجزائريَّة عبر التَّسلْسُل الزَّمنيِّ الآتي:

5-2-1/ المهجرُ الشَّاميُّ؛ ملتقى التَّاريخ والجغرافيا: من أبرز المحطَّات التي نظَّمت فكر الإمام الإبراهيميِّ وأعادت صياغة كثيرٍ من قناعاته ورؤاه، فترةُ مُقامه في المهجر الشَّاميِّ لنحو أربع (04) سنوات (بداية من منتصف عام 1916م إلى أوائل عام 1920م تاريخ رجوعه إلى الجزائر) وهي فترةٌ لم تَنَل –في حدود ما تيسَّر الاطِّلاعُ عليه– ما تستحقُّه من المتابعة والتَّحليل، فقد كان المهجرُ الشَّاميُّ ذا خصوصيةٍ رسَمَت ملامحَها الهِجْراتُ الجزائريَّة اللاَّحقة لهجرة آل الأمير عبد القادر بعد استقراره هناك، وما أردف ذلك من هِجْراتٍ كان من أبرز ما طبعها على العموم: النُّخبة المهاجرةُ، وعددُها، وطبيعةُ نشاطها

المنارة للاستشارات

هناك، ويسوق أحدُ ثمار هذه الهجرة الأستاذ سهيل الخالدي (1942م–2019م) في ذلك: "إنَّه من المعروف على نطاق واسعٍ أنَّ المهجَّرين إلى الشَّام، أصحابُ هجرة سياسيَّة، وليس هجرة اقتصادية، كإخوانهم الذين هاجروا إلى فرنسا، كما أنَّهم أصحابُ كفاءاتٍ عالية أوليس من المنطق –إذن– أنْ تظهر فيهم حركةٌ سياسيَّةٌ لصالح وطنهم، أم أنَّ سحر الشَّرق أنساهم الوطن؟"[11] ويكفي أنْ يكون من أبرز الجزائريِّين في هذا المقام الشَّيخ طاهر السَّمعوني الجزائري (1852م– 1920م) صاحب حلقة دمشق الكبرى، والشَّيخ محمَّد الخضر حُسَين (1876م– 1958م)، وهما اللَّذان كانا ضمنَ الوجود الجزائريِّ النَّوعيِّ الوارث لجهد الأمير عبد القادر في بنيه وأتباعه، فمثَّلا بقوَّة وفاعليَّةٍ الوجود الجزائريَّ على أرض الشَّام منذ بداية القرن العشرين، وخلال فترة الحرب العالميَّة الأولى وما بعدها تحديدا.

لقد كانت الجهود العلميَّة والعملية التي حضر تفاصيلها الإبراهيميُّ –مؤثرا ومتأثِّرا– رافدا فاعلا في تكوين شخصيته، وارتسمت معالمُ ما بعد مُقام المهجر الشَّامي، وفي ذلك يقول الإبراهيمي: "فكنّا لا نفترق من اجتماع إلاَّ على موعد لاجتماعٍ، وكان واسطة العقد في تلك المجالس الأستاذُ الجليل والأخ الوفيُّ الشَّيخُ الأستاذ محمَّد الخضر حُسين مدّ الله في حياته. ولقد أقمتُ بين أولئك الصَّحب الكرام أربعَ (04) سنين إلاَّ قليلًا، فأشهدُ صادقًا أنَّها هي الواحة الخضراء في حياتي المُجدِبة، وأنَّها هي الجزءُ العامر، في عمري الغامر؛ وأنِّي كنت فيها أقرَّ عينًا وأسعد حالًا من ذلك الذي نزل على آل المهلَّب شاتيًا، فوجد الإدبار رائحًا والإقبال آليًا"[12]. والنَّصُّ إقرارٌ صريح من الرَّجل في أثر هذا الإقامة في تكوينه الفكريِّ والسِّياسيِّ، وعمق العلاقات التي ستتجدَّدُ في مناسبتَيْن أخريَيْن مستغلَّة هذا الرَّصيد الشَّاميِّ في خدمة فكرة الوطن الجزائريِّ، وبذل الجهد في سبيل تحريره، والمحافظة على انتمائه الطَّبيعيِّ في إطاره العربيِّ الإسلاميِّ.

فمع ما كان عليه وضعُ الإمامِ الإبراهيميِّ الاجتماعيُّ المناسبُ عموما في بلاد الشَّام فقد كان صاحبَ الأمير فيصل بن الحسين، وقد كان الأخير يريده أنْ يتولَّى إدارة التَّعليم في الحجاز، إلاَّ أنَّ الإبراهيميَّ كانت عينُه على الجزائر، وفي ذلك يقول: "وجاءتني من الجزائر أخبارٌ متواترة تفيد أنَّ الجوَّ فيها أصبح صالحًا للعمل المُثمر في العلم وفي السِّياسة، فعقدتُ

المنارة للاستشارات

العزم على الرُّجوع إلى الجزائر"[13] فلقد كانت إقامته في الدِّيار المشرقيَّة عموما، وفي بلاد الشَّام تحديدا فترة أثْرَتْ رصيده المعرفيَّ، وأنشأ له بها علاقاتٍ اجتماعيةً وسياسيَّةً وعلميَّةً عاليةً، سيكون لها ما بعدها، فيوظِّفها في أوقاتها المناسبة لخدمة الفكرة الأولى على سُلَّم أولوياته: قضية الوطن الجزائريِّ بكلِّ تفصيلاتها.

5-2-2/ فكرة الوطن الجزائريِّ في قلب فرنسا الاحتلال: من المشاهد التي تأخذ القارئ بالحيرة والاندهاش موقفُ الحركة الإصلاحية الجزائريَّة بريادة الشَّيخَيْن ابنِ باديس والإبراهيميِّ من وضع مشروع الوطن الجزائريِّ بين أفراد الجالية العربية والجزائريَّة وشمال أفريقيا، فقد تحوَّل اهتمامُ الحركة الإصلاحية في الجزائر نحو فرنسا ذاتِها، وكان للإبراهيميِّ فيها محطَّاتٌ تجدَّد فيها موقفُه من الوطن الجزائريِّ، فبعد أنْ أصبح للحركة الإصلاحية في فرنسا موضعُ قدم من النَّوادي والمدارس ومقرَّات الشُّعب، صار من الضَّروريِّ انتقالُ الإبراهيمي إلى هناك، وهو انتقالٌ له قراءات كثيرة ما يهمُّ المداخلةَ منه هو رؤية الإبراهيميِّ للوطن الجزائريِّ في ظلِّ لقاءاته مع الجالية الجزائرية، وأعيان الشَّأن العربيِّ، وكذا جهات فرنسيةٍ مختلفة من سياسيِّين، وصحافةٍ ورجال قانون.

انتقل الإبراهيميُّ وهو رئيس جمعيَّة العلماء إلى فرنسا أواخر أكتوبر 1950م رفقة نائبه الشَّيخ العربي التّبسِّي، ودامت رحلتُه هناك خمسين (50) يوما، تفقَّد خلالها وضعيَّة متعلَّقات الوطن الجزائريِّ المادِّية والمعنوية بين أفراد الجالية الجزائرية، والتقى بأعيانها وعمومها وقد لخَّص جوهرَ الزِّيارة فيما يتعلَّق بالدَّاخل الجزائريِّ في نقطتين شكَّلتا يومئذ ذروة الصِّراع بين الحركة الإصلاحية وسلطات الاحتلال، فيقول: "ذهبنا إلى باريز لخدمة قضيتَيْن، باريز هي مركزُهما، وهي ميدان الأعمال لهما، الأولى: قضيتُنا المعروفة ذات الشُّعبتَيْن، وهي فصل الحكومة الجزائريَّة عن الدِّين الإسلامي، وحرِّية التَّعليم العربيِّ"[14] وهما المسألتان التي أظهرت فيهما الحركة الإصلاحية دفاعا مستميتا لعلمها بموقع مقوِّمَيْ الدِّين واللُّغة من استواء فكرة الوطن الجزائريِّ الذي تنشده، وما إصرارُها على افتكاك الإشراف على شؤون الدِّيانة الإسلامية والتَّعليم العربي إلاَّ يقينٌ منها بخطورة بقاء أمرهما بيد الاحتلال، بقدر يقينها بحجم الفوز الذي حقَّقته لو تمَّ لها هذا السَّعيُ كما أرادت، وأمَّا القضيةُ الأخرى فهي:

المنارة للاستشارات

"قضية إخواننا الجزائريِّين النَّازحين إلى فرنسا في سبيل العمل للقوت حينما ضاقت بهم بلادهم... وأنْ نتسبَّب إلى تأسيس مدارسَ هناك لتعليمهم وتعليم أبنائهم، حتَّى تبقى نسبتُهم إلى الإسلام محفوظةً، وعلاقتُهُم بالإسلام متينة"[15] والسَّعيُ في كلا القضيَّتَيْن واضحُ الهدف بيِّنُ الوجهة، وهو يضع أسُسَ المجتمع الجزائريِّ النَّازح إلى بيئة مغايرة للبيئة التي نشأ على مبادئها، فيبقى على صلة بمقوِّمات وطنه، ولو كان على غير جغرافيته، وينشأ الجيلُ الجديدُ منهم على ولاءِ آبائهم، وفيًّا لتلك المبادئ والمقوِّمات، حتَّى ولو ألجأته الظُّروف الاقتصادية التي هي صنيعة الاحتلال إلى ذلك الواقع.

لقد قدَّمت الرُّؤية الإبراهيميَّة تأطير الجالية الجزائريَّة في فرنسا بما تؤطِّر به المواطنين الجزائريِّين في الجزائر، مع ما ترى فيها من كلفة ومشقَّة، ولكنَّ نجاح المشروع سيجعل من الجزائريِّين المقيمين في فرنسا –ولأجيالٍ قادمة– يعيشون الوَطَنَ وهم هناك، فلا يتأثَّرون بثقافة البلد الذي يسكنون فيه، وقد سبق أن سكنهم الوطَنُ الذي قَدِموا منه، وذلك هو المفهومُ الجديدُ للوطن، متحوِّلا إليه من معنى المكان، بعد أنْ أصبح تجاوُزُ المكانِ حقيقةً أقرَّتها تكنولوجياتُ التَّواصل والمواصلات، فطُويَت المسافات، واختُصِرَت الحدودُ، ومتجاوزا به مفهوم الوطن في الفلسفة الغربيّة التي "ورثت الدِّيموقراطية الحديثة عن روما تصوُّرا للمواطنة معرَّفا مسبقا من ناحية الوضع القانونيِّ"[16] إذ لم تعد المواطنةُ إيجادَ أيّ صُورةٍ أخرى لتثبيت المعاني المجرَّدة لحقيقة الوطن، وتسويق آلياتٍ جديدةٍ لتداول القيم المُبقية على الإطار العام للمواطنة، وهي أفكار وممارسات تَبْني عليها الدُّولُ والمجتمعات الحديثة وجودها ووجود المنتسبين إليها في مختلف الأماكن والبقاع، وبعد أنْ كانت الحميَّة التي يُشهِرُها المقيمون على إقليم من الأرض يعتزُّون بالانتساب إليه، ويفاخرون بانتمائهم إلى جغرافيته عنوانا على المواطنة والوطنية؛ فقد جاورها – مثلا – حمل جواز سفر بلونٍ وشعارٍ معيَّنَيْن، معبِّرا عن انتماءِ حامله إلى جهة معيَّنة، ولم يعد ذلك الجواز وثيقةً رسميَّةً تبرِّر العبور بين الحدود وتنظِّمه، بقدر ما صار عنوانا لهُوية وطنٍ تشظَّى حاملو هُويتِهِ وقِيمِه في البلدان، وتفرَّقوا بين كثير من الأوطان، ولكنَّهم يعيشون وطنهم خارجه.

المنارة للاستشارات

إنَّ الوطنية والمواطنة التي يُناضل الإبراهيميُّ من أجل إشاعتها بين الجزائريِّين والعرب والمسلمين في ديارٍ غير ديارهم، هي تلك المعاني النَّفيسة التي عبَّر عنها ابنُ باديس في آخر درسٍ خَتَمَ به القرآن الكريم، وحاز فضل تقييده يومئذٍ الإمام الإبراهيميُّ نفسُه، وهو من أعجب المعاني في تعريف الوطن والمواطنة والوطنيَّة، التي سبق أنْ تناولها محمَّد عبده والكواكبيُّ وحسن البنَّا وغيرُهم، إذْ يعتبرون الوطن الأكبر هو دار الإسلام، ثمَّ حوزة العروبة ثمَّ الأقاليمُ التي تضمُّ الأهل والعشيرة، حتَّى ينتهي الأمر ببيتٍ يضمُّ عائلةً من جملة أفرادٍ وهو المعنى الأوَّل البدائيُّ للوطن (محلُّ السُّكنى) وهم مع اتِّفاقهم في هذا، إلاَّ أنَّ تصوير المعنى الحقيقيّ للمفاهيم السَّابقة مستنبَطًا من نصوص الوحي قد أبدع فيه ابنُ باديس تعقيبا على تفسير سورة الفلق، ومستحضرا الحديثَ النَّبويَّ الذي أخرجه مسلم من حديث عائشة – رضي الله عنها – أنَّ رسول الله – صلى الله عليه وآله وسلم– كان إذا اشتكى الإنسانُ الشَّيءَ منه، أو كانت به قرحة أو جرح، قال النَّبيُّ بأصبعه هكذا –تعني وَضَعَها على الأرض كما فسَّرها سفيانُ بالعمل– ثمَّ رفعها وقال: «بِسمِ اللَّهِ، تُرْبَةُ أَرضِنا، بِرِيقَةِ بَعضِنا، لِيُشْفَى بِهِ سَقِيمُنا، بِإِذنِ رَبِّنا» فيقول معقِّبا: "ويقول ذوو المنازع القوميَّة والوطنيَّة ولو كانوا يدينون بالوثنيَّة: آمنا بأنَّ محمَّدًا رسول الله. فقد علّم النَّاسَ من قبل أربعة عشر قرنًا أنَّ تُربة الوطن معجونة بريق أبنائه تَشْفي من القروح والجروح، ليربط بين تربته وبين قلوبهم عقدًا من المحبَّة والإخلاص له، وليُؤكِّد فيها معنى الحفاظ له والاحتفاظ به، وليُقرِّر لهم من منن الوطن منّةً كانوا عنها غافلين، **فقد كانوا يعلمون من علم الفطرة أنَّ تربة الوطن تغذي وتُروي، فجاءهم من علم النُّبوة أنَّها تَشْفي، فليس هذا الحديثُ إرشادًا لمعنًى طبيٍّ ولكنَّه درسٌ في الوطنيَّة عظيمٌ، ولو أنصف المُحدِّثُون لما وضعوه في باب الرُّقى والطِّبِّ فإنَّه بباب حبِّ الوطن أشبه**"[17] وإذا كان ابنُ باديس قد أجاد في تصويره النَّظريِّ لمفاهيم الوطن ومشتقَّاته، والتَّأصيل الشَّرعيِّ لها، فقد كان الجهد الإبراهيميُّ نموذجا تطبيقيًّا لتلك القناعات التي أُشرِبَها الرَّجُلان وهما يشتركان في ريادة الحركة الإصلاحية في الجزائر الحديثة.

ولعلَّ أصدق ما يبرِّر ما سبق من القول، هو النَّشاط الذي ختم به الإبراهيميُّ رحلته إلى فرنسا باستغلال فرصة انعقاد الدَّورة السَّادسة للجمعية العامَّة للأمم المتَّحدة، والاتِّصال بالوفود العربيَّة والإسلاميَّة القادمة إلى باريس لتمثيل دولها، وبذل الجهود لتسجيل القضيَّة

المنارة للاستشارات

الجزائريَّة في جدول أعمال الجمعيَّة القادمة، وعقد اتِّفاقاتٍ مبدئيَّة لاستقبال بِعْثاتٍ علميَّة للطَّلبة الجزائريِّين في البلاد العربيَّة والإسلاميَّة على نفقتها، وكذا تعاهُد نشاط الحركة الإصلاحيَّة في فرنسا، فقد كان واضحا أنَّ الإبراهيميَّ "قد لمس بنفسه أثناء زيارته الأخيرة إلى باريس حالةَ الرُّكود هذه التي انتابت نشاط الشُّعبة المركزيَّة بباريس"[18] ومن فقرات هذا النَّشاط ذلك الحفل الذي أقامته شعبةُ الجمعيَّة بباريس على شرف الوفود العربيَّة والإسلاميَّة، وذلك مساء الثُّلاثاء 29 جانفي 1952م بنزل العالَمَيْن (Deux Mondes) بباريس، وقد استقبل الإبراهيميُّ هذه الوفود بكلمته التي ألقاها بعد كلمةِ الأمين العام للجامعة العربيَّة عبد الرَّحمان عزَّام بخطاب الأخوة على الوطن الجامع قائلا: "أيُّها الإخوان المتلاقون على هوى واحد، هو هوى الوطن الجامع، المتعبّدون بعقيدةٍ واحدةٍ هي عقيدةُ تحريرِ هذا الوطن الجامع، الطَّالعون كالكواكب من أفقٍ واحد هو هذا الشَّرقُ الذي أطلعت سماؤه الشَّمس والقمر، وأطلعت أرضه الأنبياء والحكماء"[19] ثمَّ تحدَّث عن الوطن الجزائريِّ معرِّفا بقضيّته ضمن جغرافيا شمال أفريقيا وتاريخها: "وإنَّ هذا الشَّمال الأفريقي كلٌّ لا يتجزَّأ، تربط بين أجزائه دماء الأجداد، ولسان العرب، ودين الإسلام، وسواحل البحر في الشَّمال، وجبال الرِّمال في الصَّحارى، وسلاسل الأطلس الأشمِّ في الوسط، واتِّحاد الماء والهواء والغذاء، وإنَّها لخصائصُ تجمع الأوطان المتباينة، فكيف لا تجمع الوطن الواحد؟"[20] وتلك مرحلة أخرى من مراحل تَمَوْقُع الوطن عند الإبراهيميِّ، ومستوى آخر من مستويات التَّمكين له، فقد حَضرَ الحفلَ عبد الرَّحمن عزَّام الأمين العام لجامعة الدُّول العربيَّة، والأستاذ فارس الخوري رئيس الوفد السُّوري، وممثِّلين عن الدُّول العربية والإسلامية، وحضره أحمد مزغنة وحسين الأحول ممثِّلين عن حركة انتصار الحرِّيات الدِّيموقراطية، وفرحات عباس وأحمد بومنجل عن حزب الاتِّحاد الدِّيموقراطيِّ للبيان الجزائريِّ، إنَّه الخروج بالوطن الجزائريِّ إلى فضاءٍ أرحبَ بعد أنْ ضيَّق عليه الاحتلالُ، وإيداعٌ له في حرصٍ بين يديْ من تُعتَقَد فيهم النُّصرة والمعونة بحكم اعتبارات كثيرة يشترك في الإيمان بها كثيرٌ من النُّخب القوميَّة والإسلاميَّة الحاضرة، وكثير منهم قد سبق لهم بالإمام الإبراهيميِّ معرفةٌ أو لقاء أو مجالسة منذ سنوات المقام الشَّامي السَّالفة.

المنارة للاستشارات

5-2-3/ الإبراهيميُّ والوطنُ الجزائريُّ في الدِّيار المشرقيَّة والإسلاميَّة: يتجدَّد سعيُ الإبراهيميِّ لصالح الوطنِ الجزائريِّ مرَّة أخرى، وعلى صعيدٍ آخرَ في رحلة شهيرةٍ طبَعَت أواخرَ حياته النِّضالية العامرة، وقد بدأت رحلتُه هذه في السَّابع مارس 1952م واستمرَّت حتَّى بداية ثورةِ التَّحرير، وقد بدأها بباكستان ثمَّ العراق فالسَّعودية ثمَّ مصر فالكويت وبغداد ودمشق وعمَّان، ثمَّ عاد إلى مصر، ثمَّ خرجَ منها إلى القدس فعمَّان ودمشق وبغداد، ثمَّ عاد إلى مصر في أكتوبر 1954م، وهي رحلة طويلة كثيرة الأحداث متنوِّعة النَّشاط، لكنَّ جامِعَها العام هو البحث عن موقعٍ لائقٍ بالوطن الجزائريِّ خارج حدوده الجغرافية التي حاصره فيها الاحتلال، والرُّجوع بهذا الوطن إلى ما يؤمن به الإبراهيمي من الامتداد الطَّبيعي للجزائر في محيطها العربيِّ والإسلاميِّ، فكانت زياراته ذات نشاطٍ رسميٍّ يقابل فيه الزُّعماء والرُّؤساءَ والملوك للتَّعريف بقضية الوطن الجزائريِّ، وشحن الدَّعم السِّياسيِّ واللُّوجستي لما هو قادم، ومن صور ذلك، مخاطبة هؤلاء في شأن الإجراءات الفعلية لإرسال بِعْثات طلاَّبية جزائريَّة لاستكمال دراستهم بهذه الدُّول على نفقتها، وطلبُ مساعداتٍ مادِّية لبناء مدارسَ عليا في الجزائر يُستقبَلُ فيها المتخرِّجون من الأطوار الأولى للتَّعليم الحرِّ في الجزائر، والذي تحمَّلت الحركةُ الإصلاحيَّة أعباء تحضير بُناها التَّحتية بصعوبة بالغة، وعجزت عن تغطية مسار هذا التَّعليم في مراحله العليا، كما كانت هذه الرِّحلةُ ذات نشاطٍ شَعبيٍّ تُقام فيه المحاضراتُ والمحافلُ لتعريف الشُّعوب العربيَّة والإسلاميَّة بحقيقة الوضع الجزائريِّ، وكسر تعتيم الاحتلال على ممارساته في الجزائر، وتسويق الصُّورة الحقيقيَّة لهذا الوطن على لسانِ أبنائه لا على لسان غاصبيه، وقد تكون هذه الرِّحلةُ بتفصيلاتها الكثيرة ويومياتها الطَّويلة أكبرَ الفُرص لتقديم صورة الوطن الجزائريِّ خارج جغرافيته المعروفة، فقد كان الإبراهيميُّ بثقله العلميِّ والسِّياسيِّ المُكتَسَب خلال الفترات السَّابقة خيرَ من يعرِّف به، وأولى من يتكلَّم عنه، بحكم ما أضحى عليه الإبراهيميُّ من مكانةٍ حازتها له مراحل نضاله ونوعيَّته، حتَّى صار أيقونةَ الجزائر لتلك الفترة، ويكفي أنْ تسمع بالإمام الإبراهيميِّ فيتمثَّل لك الوطن الجزائريُّ في بلاغة خطاب، وهمَّة تحرير، وولاء للعروبة والإسلام، ووفاء للشَّرق ومقوِّمات الشَّرق وحضارة الشَّرق.

المنارة للاستشارات

ولعلَّ من بين ما يُلفت الانتباه في هذه الرِّحلة، هو ذلك اللِّقاء الذي أعاد فيه القَدَرُ جمع حَمَلَة همِّ الوطن من جديدٍ، ولكنْ من مواقعَ أخرى، فقد "زار الأستاذُ الأكبر [الإبراهيميُّ] الشَّيخَ محمَّد الخَضر حسين شيخ الأزهر الشَّريف واجتمع بأغلب المسؤولين والوكلاء للأزهر"[21] فها هو الشَّيخ محمَّد الخضر حسين الذي جمعته بالإمام الإبراهيميِّ حلقةُ دمشق الكبرى بين يدي الشَّيخ طاهر الجزائريِّ خلال الحرب العالمية الأولى، تعيد الأقدار جمعَهُما من جديدٍ، وأحدُهما يحملُ همَّ الأمَّة في حيِّز الأزهر، والآخرُ يحمل همَّ وطنٍ يجوب به الأمم.

غير أنَّ هذه الفترة من خروج الإبراهيميِّ قد شهدت انطلاق الثورة التَّحريرية الكبرى والإبراهيميُّ خارج وطنه، فقد فاجأه انطلاق ثورة بذل في سبيل تحضير وقودها الكثير ولكنَّه لم ينل شرف الإشراف عليها ولا الاستئذان في أمرها، فقد فاجأته وهو في القاهرة أخبار الإذاعات والصُّحف ذات صباح من أوائل نوفمبر 1954م باندلاع أحداث نوعية متفرِّقة متناسبة في الزَّمن، ثبت بعدها أنَّها بداية ثورة وطنٍ، لتتوالى الأحداث بعد ذلك سراعا، لَبِث بعدها الإبراهيميُّ بالقاهرة حامل شأن الثَّورة في إنشاء مقرَّاتها، وحشد الدَّعم المادِّيِّ والمعنويِّ لها، ولكنَّ الذي يجب الإقرار به تاريخيًّا أنَّ هذه المرحلة قد تسارعت أحداثها، وغلبت الإبراهيميَّ على أنْ يحتويها، فحركة الإخوان المسلمين بقيادة حسن البنَّا قد سطع نجمها وانتشر فكرها، وقد وجد الإبراهيميُّ نفسه رفقه تلميذه النَّجيب الشَّيخ الفضيل الورتيلاني وسط تجاذبات التَّيَّار الإسلامي في مصر واليمن، وسلطاتهما، كما أنَّ قيادة ثورة التَّحرير لم تكن على درجة من الولاء المطلق للإمام الإبراهيمي، فقد تربَّى الكثير ضمن تيَّار وطنيٍ في الحركة الوطنية خارج إطار جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي يدين منتسبوها للشيخ الإبراهيميِّ بولاء يختلف عن ولاء منتسبي بقية تيارات الحركات الوطنية الأخرى، وإن كانوا يكنُّون له الاحترام، ولعلَّ هذا ما أثَّر على موقع الإمام الإبراهيميِّ من التَّحوُّلات الكبرى في الثَّورة التَّحريرية فلم يكن له من الحضور على السَّاحة الجزائرية مثلما كان له من الحضور قبل اندلاعها، ثمَّ كان ظهور التَّيار الاشتراكي واستحواذه على معظم الشَّرق مقابل التَّيَّار الرَّأسماليِّ في الغرب، وتأثير ذلك على الدُّول العربية والإسلامية التي وجدت نفسها مجبرة على اختيار أحدهما، وقد كان للجغرافيا منطقها، فكان لمسارعة النُّظم

المنارة للاستشارات

العربية النَّاشئة اختيار النِّظام الاشتراكي أثره الواضح على خروج التأطير العامِّ لشؤون الوطن الجزائريِّ، وقد كانت أواخر السَّنوات العشر التي قضاها الإبراهيميُ رافدا للثورة الجزائرية في المشرق طافحة بأفول تأثير الإبراهيميِّ على المشرفين الجدد على شأن الوطن الجزائريِّ من السياسيِّين والعسكريِّين، ولم يعد له الكثير ليقدِّمه وبخاصة حينما أعلنت كلُّ التَّنظيمات الوطنية الجزائرية انضواءها تحت لواء جبهة التَّحرير الوطنيِّ وجيشها، فصار الإمام الإبراهيميُّ أحد أفراد هذا الوطن، ويظهر أنَّ هذا الوضع قد ترك على الشَّيخ أثره، فلم يجد من عزاء إلاَّ أنْ يخاطب وطنه الجزائريَّ من جديد، بعبارات لم يخنه فيها بيانه كالعادة فيقول مخاطبا جزائره: «خطَّت الأقدارُ في صحيفتي أنْ أفتح عينَيَّ عليك وأنت مُوثَقَةٌ، فهل في غيب الأقدار أنْ أغمض عينَيَّ فيكِ وأنت مطلقة؟ وكتَبَت الأقدارُ عليّ أنْ لا أمْلِكُ من أرضك شبرًا، فهل تَكتُبُ لي أنْ أحوز في ثراك قبرًا؟»[22] ومن أبرز المشاهد التي عكست بوضوح لا يخلو من حسرة وأسف موقفه ممَّا آل إليه وطنه، في أول خطبة جمعة بعد الاستقلال والتي أمَّ فيها النَّاسَ في وفود السُّلطة الجزائرية الجديدة ومرافقيهم من مختلف الدُّول العربيَّة والإسلاميَّة، ثمَّ بيان السادس عشر أفريل 1964م الشَّهير، وما دون ذلك، فقد تحوَّل الوطن عند الإبراهيميِّ مكانا ينتظر فيه أجلَه، أما ما كان يرسمه له من أفق، أو يُحضِّره له من أملٍ فقد تناوله عنه قوم، لا شكَّ في بذلهم، وفي رؤيتهم، ولكنَّ رؤيتهم للوطن كانت على غير ما هي عند الإبراهيميِّ.

خاتمة:

أفضى هذا المسح العَجِلُ لمفهوم الوطن والمواطنة في جوانب من مسيرة الإبراهيمي إلى مزيد من الإضاءة لبعض الجوانب من سيرة الرَّجل، وموقفه من هذه المفاهيم، وهو ما يمكن عرضه في النِّقاط الآتية:

- يستقي الإمام الإبراهيميُّ مفهومَ الوطن والمواطنة من الرَّصيد التَّاريخي التُّراثيِّ العربيِّ الإسلاميِّ من خلال المدوَّنة العربية، وما أقرَّه التَّشريع الإسلاميُّ في نصوص الوحي.

المنارة للاستشارات

- يتجلَّى موقفُ الإبراهيميِّ من الوطن والمواطنة من خلال مسيرته العلمية والنِّضالية عبر مشهدَيْن؛ أحدهما نظريٌّ: وعكسته مقالاته وخطبه وخواطره خلال قرابة ثلاثة عقود وثانيهما عمليٌّ: وأظهرته جهوده ورحلاته وإشرافه المباشر على كلِّ ما دعا إليه بقلمه.
- ارتقى الجهد الإبراهيميُّ إزاء وطنه وبناء مواطنةٍ حقيقيَّة عبر مراحل بدأت بالتَّكوين ثمَّ الإعداد فالإنجاز، عبر مسارٍ زمنيٍّ مدروس وحذر، أحسن فيه قراءة ظروف المرحلة، ونجح إلى حدٍّ بعيد في مناورة الاحتلال، وبخاصَّة عند استحضار ظروف الاحتلال وسلطته.
- يُلاحَظ المنحى التَّصاعديُّ لتمرير فكرة الوطن، وترسيخ المفهوم العمليِّ للمواطنة عبر مراحل أفضت السَّابقة منها إلى اللاَّحقة، في تناغمٍ استغلَّ المُتاح من الجهود، واستَثْمرَ المُمكنَ من الطَّاقات.
- لم يقف الواقعُ الذي حاصر فيه الاحتلالُ الوطن الجزائريَّ حاجزا يمنع الإبراهيميَّ من تمرير مشروعه، بل سعى إلى التَّبشير بذلك الوطن الجزائريِّ خارج جغرافيته إلى حين.
- قد يمكن اعتبارُ الجهدِ الإبراهيميُّ في ترسيخ حقيقة الوطن ومبدأ المواطنة مرجعيةً للعديد من أعلام الحركة الوطنيَّة الجزائرية ومشاريعها، كما كانت الظروف الإقليمية والعالمية سببا مباشرا في ظهور رؤى أخرى لمفهوم الوطن.

الهوامش والإحالات

(1)– سامح فوزي، المواطنة، ط1. القاهرة: 2007م، مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان، ص7.

(2)– أرسطو، مقتطع من نص: ما المدينة إذن؟ سياسة الكتاب الثَّالث (الفصل الأول). تر: ج. أوبونيه د ط. باريس: 1993م. دار جاليمار، ص 73–75.

(3)– الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، تح: مهدي المخزومي – إبراهيم السَّامرائي، د ط. د ب: د ت، دار ومكتبة الهلال، ج2، ص14.

(4)– الخليل بن أحمد، كتاب العين، ج7. ص 454.

(5)– المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى وآخرون، د ط. القاهرة: د ت، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، دار الدَّعوة، ج2. ص1042.

(6)– أحمد مختار عمر وآخرون، معجم اللغة العربية المعاصرة، ط1. الرِّياض: 1429هـ– 2008م: عالم الكتب، ج3، ص 2462.

(7)– أحمد مختار عمر وآخرون، معجم اللغة العربية المعاصرة، ج3، ص 2462.

المنارة للاستشارات

(8)– أحمد مختار عمر وآخرون، معجم اللُّغة العربية المعاصرة، ج3، ص 2462.

(9)– أيوب بن موسى أبو البقاء الكفوي، الكُلِّيات معجمٌ في المصطلحات والفروق اللُّغوية، تح: عدنان درويش – محمَّد المصري، د ط. بيروت: د ت، مؤسَّسة الرِّسالة، ص940.

(10)– محمَّد البشير الإبراهيمي، آثار الإمام محمَّد البشير الإبراهيمي، جمع وتقديم: أحمد طالب الإبراهيمي ط1. بيروت: 1997م، دار الغرب الإسلامي، ج4، ص181.

(11)– سهيل الخالدي، الإشعاع المغربي في المشرق، دور الجالية الجزائرية في بلاد الشام، د ط. الجزائر: 2016م، دار الأمَّة للطِّباعة والنَّشر والتَّوزيع، ص184.

(12)– محمَّد البشير الإبراهيمي، الآثار، ج3، ص566.

(13)– محمَّد البشير الإبراهيمي، الآثار، ج5، ص167.

(14)– محمَّد البشير الإبراهيمي، الآثار، ج2، ص371.

(15)– محمَّد البشير الإبراهيمي، الآثار، ج2، ص372.

(16)– دومنيك شنابر وكريستيان باشولييه، ما المواطنة؟ تر: سونيا محمود نجا، ط1. القاهرة: 2016م، المركز القومي للتَّرجمة، ص15.

(17)– عبد الحميد بن باديس، آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، تح: عمَّار طالبي، ط1. الجزائر: 1388هـ– 1968م، دار ومكتبة الشَّركة الجزائرية، ج2، ص117.

(18)– سعيد بورنان، نشاط جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في فرنسا 1936–1956م، د ط. الجزائر: 2013م، دار هومة، ص166.

(19)– محمَّد البشير الإبراهيمي، الآثار، ج2، ص465.

(20)– محمَّد البشير الإبراهيمي، الآثار، ج2، ص467.

(21)– تركي رابح عمامرة "احتفاء مصر بالأستاذ الرَّئيس" البصائر: ربيع الأوَّل 1372هـ–ديسمبر 1952م، ع 208، (سلسلة2)، ص2.

(22)– محمَّد البشير الإبراهيمي، الآثار، ج4، ص183.

المنارة للاستشارات